مشكلة التعامل مع النصوص المتراثية

يظن كثير من الذين يدرسون تراثنا العربى المكتوب أن "النص" وحده هو المصدر الوحيد الذى يمكن استخدامه كدليل مؤكد على قضيتهم التى يقيمونها، أو استنتاجهم الذى يذهبون إليه. ولما شك أنهم محقون فى ذلك إلى حد ما، وليس إلى حد بعيد.

فالنص يظل بالنسبة للباحثين فى الدراسات الإنسانية التراثية بمثابة الظاهرة الطبيعية بالنسبة للباحثين فى العلوم التجريبية، لكن الذين يدرسون العلوم الطبيعية على أساس المنهج التجريبي لا يقتطعون الظاهرة التى يقومون بدراستها عن بيئتها، وعن الظروف المحيطة بها، والمتى قد تؤثر فيها، وتتأثر بها.

أما الباحثون فى التراث العربى المكتوب فإنهم غالباً ما يقتطعون النص من سائر مؤلفات صاحبه، ثم يقومون بتحليله، واستخراج النتيجة أو النتائج التى يمكن أن تخرج منه، أو تترتب عليه، وهنا خطأ كبير. فنص المؤلف ينبغى أن يدرس ضمن سائر نصوصه الأخرى، وكذلك ينبغى أن تراعى الظروف السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية التى تكون فيها النص

..
ولأن هذا عمل طويل ومرهق، فإن معظم الباحثين يستسهلون طريقة نزع النص من أحد مؤلفات صاحبه، وعدم مراعاة مختلف الظروف التى أشرنا إليها

وإذا كان هذا الطابع يغلب على معظم المدارس المحدثين لتراثنا العربى، فإنه ينطبق أيضاً على كثير من علمائنا القدامى الذين كانوا يتصيدون رأياً لواحد منهم، أو عبارة واردة فى أحد مؤلفاته، ثم يقيمون حولها مذهباً كاملاً له، وبذلك يتمهد لهم الطريق لى يدينوه إن كانوا حاقدين عليه، أو يشيدون بفضله وفضائله إن كانوا أتباعاً له.

إننى لا أكتب عن هذا الموضوع الهام إلا بعد ملاحظة طويلة للعديد من كتابات الباحثين المحدثين، والعلماء القدامى.

وبالمطبع لا يتصل حديثي هذا من قريب أو حتى من بعيد بأصحاب تأويل النص الذين ظهروا في عالمنا العربي مؤخرًا ، وذهبوا إلى ضرورة فصل النص عن صاحبه بمجرد إصداره.

وبالتالي يصبح من حقهم أن يفهموه ، ويؤلوه ، ويوجهوه كما يحلو لهم ، بل إن ما أذهب إليه هو العكس من ذلك تمامًا ، وهو أن يظل النص مرتبطًا بصاحبه ، بل ويسائر مؤلفاته من ناحية ، ثم بالظروف التي أنتج فيها من ناحية أخرى . وفي رأيي أن النص بهذا الشكل يمكن أن يفهم على نحو صحيح ، أو بالأقل على أقرب ما يكون من الصحة .

أما أصحاب تأويل النص فإنهم يذهبون بعيدا ، وكان الأجدد بهم أن يتشجعوا وينشئوا بأنفسهم نصوصهم الخاصة بهم ، وأن يقولوا فيها ما يريدون ، أو ما يضمرون ، دون أن يتوكأوا على (عكاكيز) المؤلفين القدامى ، الذين لم يعد في مقدورهم أن يرفعوا رؤوسهم من قبورهم ، ويصرخوا فيهم : "ليس هذا ما قصدناه !!!" .

إن الدراسات العربية الإسلامية الحديثة ، عندما بدأت تخطو منهجياً في النصف الأول من القرن العشرين ، قد شهدت باحثين أصلاء استطاعوا أن يفهموا جيدا نصوص التراث العربي القديم ، وأن يقتطعوا منها ما يخدم التسلسل التاريخي الذي حاولوا تقديمه للأجيال الجديدة في عصرهم .

ويمكن أن أستشهد في هذا الصدد بأمثال أحمد أمين ، وأمين الخولي ، ومحمد مندور ، وعلى حسب الله ، ومحمد عبد الله دراز ، ومصطفى صادق الرافعي ، والعقاد ، وطه حسين .. وأمثالهم ممن تتكون منهم "كتيبة كاملة" من الباحثين المتعمقين في فهم التراث العربي ، والمقادرين على تقديم نصوصه بصورة واضحة لا لبس فيها ولما غموض .

ومن الملاحظ على هؤلاء أنهم قد جمعوا إلى استيعاب التراث العربي اطلاعاً واسعاً على مناهج المستشرقين التي أفادت كثيراً من الطابع العام للمنهج التجريبي، فأخذت منه: وضوح اللغة، وأمانة الاستشهاد بالنصوص، مع الاحالة بدقة إلى مصادرها المستخرجة منها، وترتيب المقدمات للخلوص إلى النتيجة. وإذا كانت نتائج المستشرقين قد شابها في بعض الأحيان أو كثير منها بعض الجنوح عن الصواب نتيجة الأغراض الخاصة، وتباين الحضارات، فإن الباحثين العرب قد كانوا أكثر دقة وأمانة، ولم يقعوا فيما وقع فيه معظم المستشرقين.

وإذا كان صحيحاً تماماً أن العلم لا يُنتزع من المجتمعات انتزاعاً، وإنما يختفى بوفاة العلماء، فقد ذهب ذلك الجيل القوي، وخلف من بعده خُلُف لم يملكو نفس مؤهلاته ولما قدراته، كما عجزوا عن استيعاب الرؤية الغربية واستخلاص ما فيها من مزايا، مع استبعاد ما تحتوى من نقائص، ثم راحوا يدرسون التراث العربي بأفهام كلية، محاولين إيهام القراء لهم بإيراد بعض المصطلحات الأجنبية في حديثهم لكي يثبتوا أنهم على وعى بحضارة الغرب، وما كان منهم إلا أن أكثروا من التأليف، وأخطأوا في فهم التراث العربي.

بل إنني أزعم أنهم لم يرجعوا إلى مصادره الأساسية، وإنما قمشوا النصوص التي كان قد استخرجها الجيل الأول، وراحوا يدندنون حولها. ولعلني أتحداهم هنا فأسألهم مباشرة: من منهم قرأ بالكامل مؤلفات الجاحظ، أو استوعب ديوان المتنبي، أو فهم رسالة المشافعي؟ من منهم يستطيع أن يثبت لي أنه قرأ شفاء ابن سينا، أو فتوحات ابن عربي، أو مغنى القاضي عبد الجبار، أو إحياء الغزالي؟ إنهم فقط يحفظون أسماء هذه المؤلفات ويعرفون نبذه عنها، وعن أسماء أصحابها، ثم لا يجدون حرجاً في قبولهم المتحدث عنها في ندوة أو محاضرة، أو حتى عندما يشرفون على أحد تلامذتهم في رسائل الماجستير والدكتوراه:

إنني أعنف في هذا الهجوم لكي أعيد الدراسات العربية والإسلامية إلى مسارها الصحيح، الذي كان قد بدأ على الطريق الصحيح، ثم ما لبث أن انحرف ثم تدهور. وهذا ما نلاحظه في مطلع القرن الحادي والعشرين، حيث سكت معظم أصحاب تأويل النص تماماً، لأنهم خسروا المعركة المزاينة التي أثاروها، وراح تلامذتهم ينظرون حولهم فلا يجدون من يأخذ بأيديهم إلى فهم تراثهم العربي بصورة صحيحة. وإذا كنا نأخذ رسائل الماجستير والدكتوراه في الجامعات المصرية والعربية معياراً لذلك فإننا نجد السطحية، والتكرار، والملا جدوى من مئات بل آلاف الصفحات التي تحشد نصوصاً، ولما تستخرج نتائج.

والمُدليل على ذلك أن الموضوع الذى درسه أحد الباحثين لا يكاد يقول الكلمة الأخيرة فيه ، ولذلك يقوم غيره بدراسته من زاوية ثانية ، وثالثة .. والمشكلة تكمن فى أن المنهج خاطئ ، وإذا كان المنهج هو الطريق الذى يؤدى للمطلوب ، فإن النتيجة التى يتوصل إليها معظم الباحثين غير ذات جدوى .

إننا بهذا المشكل نجعل الدراسات العربية والإسلامية أشبه بسواقي الفيوم ، الموضوع على نهر يجرى ، وكل ما تفعله أنها تنقل الماء من مستوى عالٍ إلى المستوى المنخفض دون أن تروى أرضاً عطشى ، بل إنها فقط تحدث ضجيجاً عالياً لا تكاد الأذن المرهفة تستسيغ سماعه لوقت طويل !

والملاحظ أنها قد صدئت وتهرأت وأصبحت بحاجة ماسة إلى إحلال وتجديد . وهذا هو ما تتطلبه حالياً الدراسات العربية والإسلامية ! إن الفوضى التى تعم الدراسات العربية والإسلامية فى اللحظة الراهنة تبعت على الأسى واليأس معا ، وإذا لم يتنبه العاملون فى هذا المحقل الهام من حقول المعرفة الإنسانية للخطر المحدق بهذه الدراسات فسوف ينتهى الأمر بالقضاء عليها تماماً ، وسوف تتحول موضوعاتها إلى (أحافير) تاريخية أو حتى قبل تاريخية) ، لا تهم سوى قلة نادرة من هالة البحث فى طبقات التاريخ السحيقة ، وبالتالي تفقد صلتها بالأجيال المعاصرة ، والأجيال القادمة .

إن ماضى الأمم لا تمثله فقط آثارها المادية ، القائمة أو الباقى منها أطلال ذات دلالات حضارية محسوسة ، وإنما تمثله أيضا ، وربما بصورة أوضح : آثارها العقلية والوجدانية المتمثلة فيما خلفته للأجيال اللاحقة من مؤلفات علمية وأدبية تعكس مدى ما توصلت إليه من تطور .

وهنا يمكن التمثيل بحضارتين : حضارة مصر القديمة المتمثلة حتى اليوم بآثارها المادية القائمة حتى اليوم ، وحضارة الإغريق التى

ظلت باقية بمؤلفاتها العلمية والفلسفية والأدبية . لكن هنا أمراً فى غاية الأهمية ، وهى أننا إذا قارنا بين الحضارة الإغريقية والحضارة العربية الإسلامية وجدنا فارقاً أساسياً ، يتمثل فى أن أحفاد الحضارة الأولى لا يريدون ولما يسعون لإحيائها مرة أخرى ، بينما أحفاد الحضارة العربية الإسلامية مصممون على إحيائها من جديد . وهذا هو السبب الذى يعطى المشروعية لدراسة منتجات الحضارة العربية والإسلامية دراسة جادة ، بحيث تركز على ما فيها من إيجابيات يمكنها أن تدفع أحفاد تلك الحضارة إلى إعادة بعثها من جديد .

أما أن تظل هذه الدراسات تجرى على هذا النمط المهزىل والعقيم فإنها لن تصل إلى أى نتيجة محددة .

وإذا كان النصف الأول من القرن العشرين قد شهد نهضة ملحوظة فى الدراسات العربية والإسلامية ، فإن النصف الثانى من هذا القرن ، وعشر السنوات التالية من القرن الحادى والعشرين هى التى يمكن أن تسجل انحطاطاً واضحاً فى تلك الدراسات ، ويتمثل ذلك فيما يلى :

أولاً : إعادة دراسة موضوعات سبق دراستها من جانب الرواد الأوائل مع التقصير الشديد لدى الباحثين المعاصرين فى الوسائل والأدوات .

ثانياً : عدم استحداث مناهج جديدة كان يمكنها أن تفتح آفاقاً واسعة أمام الدراسات العربية الإسلامية لمزيد من تطويرها واستخلاص نتائج جديدة منها .

ثالثاً : المحاولة المتعثرة لفرض مناهج أجنبية على هذه الدراسات بصورة متعسفة ، الأمر الذى أدى إلى كثير من الغموض والبلبلية لدى القراء انتهياً بانصرافهم عن المتابعة .

رابعاً : غياب المهدف الحقيقى من الماشغال بتلك الدراسات ، وهو إحياء الحضارة العربية والإسلامية بصورة جديدة أو متجددة تتمشى

مع ظروف العصر الحاضر وتتفاعل مع مستجداته .

وأخيراً : فإن الدارسين أنفسهم لم يستطيعوا أن يجمعوا في توازن مناسب بين التعمق في التراث العربي ، وبين الإلمام الكافي بالحضارة الغربية الحديثة . وبالعودة إلى النصوص ، نؤكد أن الدقة في اختيارها ، والفهم الصحيح لمضمونها بعد تحليل عناصرها تحليلاً لغوياً وبلاغياً على مساق التعبير العربي المتعارف عليه ، ثم استخدامها في الأغراض المحددة لها ، واستخلاص النتائج المنبثقة منها دون تعسف أو تأويل ..

كل ذلك ينبغي أن يتم في إطار دراسة منطقية ، ترتب فيها المقدمات ، وتعرض الأدلة ، وتوضح الأمثلة ، ومن الممكن أن نتوقف هنا قليلاً لنشير إلى الفهم الخاطئ لنصوص ابن رشد التي تتعلق بالصلة الحميمة بين العقل والوحي ، أو بين الفلسفة والشريعة . فقد صرح الرجل بأن هذين المصدرين للمعرفة : إما أن يتفقا أو يتعارضا ، فإن اتفقا كان بها ، وأن تعارضا لجأنا إلى تأويل النص الديني .

وهنا أسرع أديعاء التأويل الغربي إلى الذهاب بهذا المصطلح إلى أبعد مما أراد الفيلسوف العربي ، لأن مقصده كما حدده هو بنفسه يعني إخراج اللفظ عن مفهومه العادي إلى مفهومه البلاغي أي المجازي ، وبذلك يمكن للتعارض الحادث بين الوحي والعقل أن يزول ، وتعود الصلة الحميمة بينهما .

إن التراث العربي والإسلامي يزخر بالعقليات العبقريّة المتميزة ، التي لم تبذل جهودها فقط في ترسيخ القواعد العلمية ، وتفصيل الفروع الجزئية ، ولكنها استطاعت أن تضيف جديداً في مختلف المجالات : ابن جني في اللغة ، وعبد القاهر الجرجاني في البلاغة ، وابن مضاء في النحو ، وابن خلدون في علم الاجتماع وفلسفة التاريخ ، وابن رشد في الفلسفة الإسلامية ، والأشعري في علم الكلام ، والغزالي في التصوف ، وابن عربي في الفلسفة ، والشاطبي في أصول الفقه ، وابن الجوزي في الأخلاق ، والبيروني في مقارنة الأديان ، وابن بطوطة في الرحلات .

وهؤلاء فقط مجرد أمثلة للعديد من العلماء العرب والمسلمين الذين كان ينبغي للدارسين المحدثين أن يتجهوا إليهم بدلاً من إضاعة الوقت والمجهود في دراسة علماء آخرين لم يكن يهمهم سوى النقول عن الأسلاف، دون تصحيح خطأ أو إضافة جديد.

وهنا تأتي قضية الاختيار من التراث: كيف تتم؟ ومن المؤهل للقيام بها؟ وقد شهد النصف الأول من القرن العشرين - أيضاً - مجموعة من كبار المحققين العرب الذين كانوا على وعى كامل بدقائق التراث العربي في لغته وأسانيه، ومن أمثلتهم: محمود شاكر، والسيد أحمد صقر، ومحمد محيي الدين عبد الحميد، ومحمد الإبياري، وأبو الفضل إبراهيم، وعبد السلام هارون، وعبد الرحمن بدوي.. الخ، لكن هؤلاء مع الأسف الشديد - رغم تمكنهم من عملهم - لم يقوموا بعملية النقد الداخلي لمضمون النصوص التي حققوها، وأحسنوا بالفعل في تحقيقها. لقد كان المأمول منهم أن يكشفوا للأجيال اللاحقة عن مواطن القوة والضعف في التراث العربي، وأن يرشدوهم إلى ما ينبغي أن تتجه الجهود إلى إخراجها من ضيق المخطوطات إلى فضاء المطبعة الحديثة، والتي تحولت في عصرنا الحاضر إلى نشر الكتروني يتسع لمئات الكتب، وملايين الصفحات.

إن الجيل الحالي من الباحثين يسعد كثيراً إذا عثر على مخطوط لم ينشر من قبل، بصرف النظر عن مضمونه أو مكانة مؤلفه، أو النتائج التي يمكن أن تستخلص منه فضلاً عما يمكن أن يستفاد منه في عصرنا الحاضر! لذلك لابد من ضبط الأمور حتى لا تظل في طريق التسيب والتدهور والانهيار. فليس كل ما في التراث قابلاً للتوزيع. وحتى مواطن الكنوز تحتوى على القليل من الجواهر والكثير من التراب والحصى!

وهذا ما لا يريد أن يفهمه أحد، كما لا يكاد يجرؤ أساتذة الجامعات، الذين يشرفون على رسائل الماجستير والدكتوراه التي تدور حول تحقيق التراث ودراسته، على التنبيه إليه، أو التحذير منه. ويبدو أن ضجيج السواقي التي تدور على النهر الجارى يكاد يصم الآذان، فلا تسمع نصيحة، ولما يؤثر تحذير!

إن عدم التعامل الصحيح مع نصوص التراث هو الذي يؤدي في أغلب الأحوال إلى حالتى الجمود والإطراب اللتين يسودان حركة التأليف العربى فى هذا المجال .

ونظراً لتخصصي الدقيق في الفلسفة الإسلامية ، فإنني أتابع بكل جدية ما يصدر فيها من مؤلفات ورسائل جامعية وأعمال علمية مقدمة للترقية في درجتي أستاذ مساعد وأستاذ بالجامعات المصرية ، والذي ألاحظه وأشهد به أن أكثر من 90% من هذه المؤلفات تتناقل فيما بينها نفس النصوص ، وتدور حولها بنفس الحركة ، وتعمل جاهدة لاستخلاص ما يراه كل باحث فيها من نتائج لم تعد تهم الواقع المعاصر في شئ! ويكفى فقط أن أحيل هنا إلى الدراسات العديدة التي تمت حول النزاع التاريخي بين المعتزلة والأشاعرة ، وما هو المحصول العلمي والثقافي الذي يمكن أن يخرج به الباحث المعاصر من هذه المعركة الخاسرة والمشكلات الزائفة التي أثيرت فيها ؟!

وأذكر أنني حضرت رسالة دكتوراه لأحد الباحثين عن أحد علماء البلاغة العرب القدامى ، ولم يكن من الطبقة الأولى أو الثانية منهم ، ثم كانت المفاجأة المدهشة أن الباحث يقترح من بين التوصيات التي يدلي بها في آخر عرضه المشفوي لموضوعه أن يقام احتفال سنوي لذكرى هذا العالم المغمور ؟! والواقع أن هذا الباحث المسكين قد وجد موجة من التوصيات التي يقوم بها زملاؤه تحت إشراف أساتذتهم ، ولذلك كان عليه أن يقدم توصيته الخاصة ، ولم تكن غير هذا "الاحتفال السنوي !"

أنا أعلم جيداً أن المشكلة لا تتعلق بالدراسات العربية والإسلامية وحدها ، وإنما بالدراسات الإنسانية كلها ، التي تخلفت طويلاً عن زميلتها : الدراسات التجريبية ، حيث المنهج أكثر تحديداً ، والخطوات مرتبة ، والإجماع مستقر ، ولما مجال للمناقشات العقيمة ولما للجدل المعاند ..

لكننا ينبغي أن ننتبه إلى أن بعض العلوم الإنسانية عندما تقدمت للإمام قليلاً ، وحاولت الاستفادة من عناصر المنهج التجريبي مثل علم النفس وعلم الاجتماع ، قد كتب لها التقدم ، وأصبحت صالحة لإفادة المجتمع المعاصر منها ، بدلاً من أن تظل متمسكة بتدابيب

المنطق الأرسطى الذى قد ينظم المعرفة لكنه لا يبدها.

وقد سبق أن دعوت إلى إمكانية استفادة الدراسات الإنسانية من المنهج التجريبي فى بعض العناصر المحددة، ومنها: الإحصائيات، واستخدام الرسم البياني. أما الإحصائيات فإنها توفّر على الباحثين إطلاق الأحكام العامة دون أساس ثابت يقوم عليها، وأما الرسم البياني فهو للوصول إلى أعلى درجة من الاختصار وعدم الإطناب، الذى يوقع عادة فى الاستطراء، والمخروج عن الموضوع.

وسوف أقدم هنا مثالين، أحدهما من الفلسفة الإسلامية وهو المتعلق باقتراب أو ابتعاد فرقة الماتريديّة بالنسبة إلى كل من المعتزلة والأشاعرة. فما زال الباحثون متحيرين حول هذا الموضوع. لكننا إذا استخدمنا فيه طريقه الإحصاء أمكننا بسهولة أن نحل المشكلة، ونقرر رأياً مستقراً. وهنا نقوم بإحصاء عدد المشكلات التى أثارها الماتريديّة، ثم نحسب عدد الحلول التى مالوا فيها إلى رأى كل من الأشاعرة أو المعتزلة، والعدد الأكبر هو الذى يحسم الموضوع مرة واحدة، وإلى الأبد.

والمثال الثانى من الأدب العربى الحديث. وهو يتعلق بأحد أكبر الروائيين العرب، نجيب محفوظ، الحائز على جائزة نوبل. ما هو ما موقفه من الدين؟ وهنا لابد من تتبع آرائه وتعليقاته فى رواياته كلها، وليس فى بعضها أو معظمها، التى تدور حول الدين، وحيداً لو تم ذلك تبعاً للترتيب التاريخى، ثم نضع رسماً بيانياً لها يحدد لنا فى النهاية كيف بدأ هو الموقف؟ وكيف تطور؟ وإلى أى حد انتهى؟

إن التعامل مع النصوص ليس عملاً سهلاً، كما أنه ليس نزهة عضوية يقوم بها الباحث لى يتسلى أو يستروح. أنه فى الواقع عمل جاد ومرهق. وهو أشبه بمن يفضحون الألماس لى يحددوا نوعه وطبيعته، تمهيداً لى يضعوا له السعر الذى يناسبه. وهؤلاء قلما يخطئون، لأنهم دائماً يعملون تبعاً لمنهج صارم يتميز بالدقة البالغة، والأمانة الكاملة، والاقتصاد فى التصريحات.

أما إخواننا الحاليون ، المشتغلون بدراسة التراث العربي والإسلامي فإنهم لا يتورعون عن إصدار الأحكام الجزافية حول شخص أو مذهب دون أن يكونوا قد قاموا بفحص دقيق لمجمل أعماله ، أو كل عناصره . لا أريد أن أضيف شيئاً آخر .

وحسبي من هذه المصرخة في وادي التراث العربي والإسلامي أن أكون قد نيهت إلى بعض أخطاء الدارسين له ، وحذرت من واقعه المتردي الذي ينبغي أن يتم تداركه ، الآن وليس غدا ، وأشرت إلى ما يمكن أن ينصلح به الحال قبل فوات الأوان .. هذا إذا أردنا - حقا وليس بالمشعارات - أن نبعث هذه الأمة من جديد ، بحيث نقوم على أسس علمية راسخة ، وليس على مجرد الصراخ والتهريج .

**